ابن خلدون والنقد الحديث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عن كتابه « ابن خلدون : حياتهُ وتراثهُ الفكري »

ابن خلدون كما تصورهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم اجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لانهم ظهروا في عصور الاسلام الفنية الزاهرة او لأنهم تناولوا نواحي عني بها التفكير الغربي [1] . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر سرى فيهِ الانحلال الى صولة الاسلام وسيادته ، وانسحلَ التفكير الاسلامي ، فلم يكن اجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغموراً في

---

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودي وابي الفدا وابن العبري وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) في انكلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر

الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفي سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو » الشرقية اول ترجمة غربية . وهي ترجمة موجزة قياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك اكثر من قرن قبل ان يعنى التفكير الغربي بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسي سلفستردي ساسي سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة في قاموسه Chrestomathie Arabe ثم نشر بعد ذلك باعوام ترجمة لمقتطفات اخرى من المقدمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة اوفى لابن خلدون في قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدمة ابن خلدون. وفي نفس الوقت نشر المستشرق النمسوي فون هامار رسالة بالالمانية عن « اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة »، تعرض فيها لبعض نظريات ابن خلدون في انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة المانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض اجزاء المقدمة في « المجلة الاسيوية[1] ». واستمر دي ساسي وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون او تاريخه ، والبحث الغربي فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨ ، ونشر دي سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة ، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصور

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان اعجب ما في هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي الا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . اجل اكتشف النقد الغربي لدهشته واعجابه في تراث ابن خلدون كثيراً مما رددته مكيافيللي بعده بقرون ، وما رددته ڤيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث ، واوجست كونت[2] بعده بقرون . وكان المعتقد ان البحث الغربي اول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الاجتماع ، واصول الاقتصاد السياسي ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيراً

(١) « المقتطف » — على من شاء معرفة المراجع التي اعتمد عليها المؤلف ان يراجعها في كتابه

(٢) مكيافللي مؤرخ وسياسي ايطالي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وڤيكو مؤرخ وفيلسوف ايطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعي فرنسي (١٦٨٩ — ١٧٥٥) وآدم سمث اقتصادي انكليزي (١٧٢٣ — ١٧٩٠) واوجست كونت فيلسوف فرنسي وهو واضع اصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة. ومن ثمّ فانا نرى النقد الغربي ، بعد ان اكتشفهُ ودرسه، يرتفع بتراثه الى اسمى مكانة ، وينظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي ، بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون اول ما عنى النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت ان لفتت انظار طائفة من علماء الاجتماع ، واخذت تتفوّق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً في النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوي الكبير البارون فون كريمر، فكتب عنه بالالمانية رسالته الشهيرة «ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية» وقدمها لاكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistriker يؤرخ حضارة الشعوب الاسلامية ، لانه من بين المؤرخين المسلمين اول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وانواع الحكم، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطورها في الدول الاسلامية ؛ وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب والمعاش، ثم عن العلوم والفنون والآداب واصنافها واحوالها وتطورها في العالم الاسلامي وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لان ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة او لذاتها وانما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

.....

ويعتبر دي بوير (الهولندي) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعهُ في ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن الطفيل ، وينوّه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ويصفه بانه مفكر متزن ، فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية ، بمبادىء الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصي او لاعتبار سياسي . بيد ان الدين لم يؤثر في آرائه العلمية بقدر ما اثرت الارسطوطالية الافلاطونية. وقد اثرت في تكوين ذهنيته جمهورية افلاطون وفلسفة فيثاغورس الافلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية لاسلافه المشارقة ولاسيما المسعودي ، ايما تأثير . وقد حاول ابن خلدون ان يؤسس نظاماً سياسيًّا جديداً لم يجل بذهن ارسطو ، وان يجعل من التاريخ نظاماً فلسفيًّا ، وهو يقول لنا

ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع كلها وتفاعله الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحققون اقوالهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يُلهمون اخيراً في ظل حياة الحضر رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دي بوير ان ابن خلدون هو بلا ريب اول من حاول ان يشرح بفاعلية تطور المجتمع وتقدمه لاسباب وعلل معينة ، وان يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها ، وأثرها في تكوين ذهن الانسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختتم دي بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار امل ابن خلدون في ان يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الاسلام ، فكما انهُ كان دون سلف ، فكذلك بقي دون خلف »

— ٢ —

بيد ان النقد الغربي كان اكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الاعجاب والتقدير ، وعني كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات اقطاب المحدثين

ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعي لدفيج جمبلوفتش ، فهو يخصص لابن خلدون في مباحثه الاجتماعية فصلاً كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعي او من علماء الاجتماع . ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين انه قد سبق في كثير من هذه الآراء اقطاب الاجتماع المحدثين ، فهو مثلاً قد اهتدى الى نظرية الاجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الاسر وانحلالها قبل ان يعرضها اوغوكار لورنتس في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته من تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف ان هذه الجماعات نفسها انما هي ثمرة الوسط . وآراؤه في هذا المقام عن الاجناس الغالبة في منتهى الخطر . وفي اقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على انه عرف « فكرة التشبه بالوسط » قبل ان يعرفه داروين بخمسة قرون ، وفي يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ما يدل على انه عرف مبدأ « وحدة المادة» قبل ان يعرفه هيكيل [1] . ومن المدهش ان نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي اثبت البحث التاريخي الحديث ان مؤسسي الدول الاوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه الدعائم التي

(١) ارنست هيكيل علامة بيولوجي وطبيعي الماني (١٨٣٤ — ١٩١٩)

أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرن الى الحكام في كتابه « الامير » . وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفي صيغتها الرقمية الخشنة ، كان من المستطاع ان يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب. هذا وقد استطاع ابن خلدون ان يقرر منذ خمسة قرون اصل السلطتين الروحية والزمنية، كما يقررها اساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي

واخيراً يقول جيلوفتش : « لقد أردنا ان ندلل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منه اول اجتماعي اوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وآتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع »

وفي نفس الوقت الذي أدلى فيه جيلوفتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعي ايطالي هو فريرو فأيد وصف جيلوفتش لابن خلدون بأنه « اجتماعي » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان . ويوافقهما في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليڤين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً «اجتماعياً»

ودرس مسيو موتيه استاذنا السابق بكلية الحقوق، ابن خلدون من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحثين قويين ، يتناول في اولهما آراء ابن خلدون الاقتصادية وفي الثاني آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية، وموسوعة لعلوم العصر، وتحتوي على اجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع. وطريقتها بالاخص بديعة تدل على ذهن علمي حق. واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى، فهي مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث، وهي مرآة الواقع. وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » ثم يحلل مسيو موتيه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ، ويصفها بقوله : « واذا فان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس الا حلقة في مجرى الاشياء الكوني ، وهو يفنى كما يفنى كل شيء . والحياة كالرّوي ، وكل تغير يقتضي عكسهُ ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط . . . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وانما يشاهد . وهو بذلك يدلُّ على ذهنية عالية حقة . وبذا يجب ان يفسح لهُ مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »

ويتوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر ان ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود بعيدة ، ويقارنهُ في ذلك بأبي العلاء المعري. ويعتقد ان مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الاسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن

خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون وما بثّت في نفسه من مرارة وخيبة امل. على ان كثيراً من الناحية الوقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة . ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة في اخلاقه، ولكنهُ صفة التفكيره فقط . ونتيجة للبحث والدرس . اما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدلُّ حوادث حياته اكثر ميلاً الى الثقة والابتهاج والتفاؤل

ويدرس الكاتب الالماني فون فيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها ويرى فيهِ ذهناً وافر الابتكار ، ومثلاً اعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير الاسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ، ويرى فيهِ بحق إماماً لمدرستي مكيافيللي وفيكو ، ويحاول ان يطبق نظرياته في سقوط الدول والاسر على الامبراطورية الالمانية والدول الاوربية فيقول : « وقد يلوح للالماني في الوقت الحاضر ان هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر اجنبي ، فان الامبراطورية الالمانية لم تعمر طويلاً ثم ذوى غصنها غضًّا الى عالم الفناء بسرعة خارقة ، فهل يجب ان نبحث لتلك المأساة عن اسباب غير تلك التي اوردها الكاتب العربي عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ويطبق ما كان يشعر بهِ او يدعو اليهِ على اوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه. وتدوي ميول المفكر والسياسي الافريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دويًّا يتردد صداه في عالم افكار عصرنا »

— ٣ —

درس الاستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية اخرى هي الناحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادىء بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمي اليها ، يمكن ان يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوَّأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجاري مكيافللي كمؤرخ ، لانه لم يعرف او لم يرد ان يطبّق المبادىء التي عرضها في مقدمته ليشرح اسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكيافللي ومونتسكيو وفيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوَّه بها أمارى المستشرق والمؤرخ الايطالي الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب في العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الجبر الاجتماعي » ويرى انها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن اجيال البدو والحضر وهي: « ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلهم من المعاش »

على ان كلوزيو ينوه بالاخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربري العظيم استطاع في العصور الوسطى ان يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كوندسيدران وماركس وباكونين» (١) ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وانواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله ان ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل ان يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة ، ويختم بحثه بما يأتي : « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعهُ في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمهُ للدور الذي يؤديه العمل والملكية والاجور يضعهُ في مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين

— ٤ —

ومن احدث البحوث النقدية في دراسة ابن خلدون رسالة للاستاذ ناثانيل شميت الاستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ، درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي . ويرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون كمؤرخ يمكن ان يوضع في صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلي ، وفلاوس الدمشقي او تروجوس پومپيوس ممن كتبوا في القرن الاول الميلادي ، او مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جانيرو وشليتسر ، وهذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الاتقان بالمصادر القديمة او في الرواية الاصلية ، ولو ان ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسي ، لكان أثراً يقيء عن همة لا تنفد ، وغزارة في المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ، بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الاثير . على ان حق ابن خلدون في الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الاثر المدهش الذي كتبهُ مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته في روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين ندديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعتهُ ، وهو بلا ريب صادق حين يقول ان احداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، واذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء اعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم ان نقول ان ابن خلدون كان بحق اول كاتب استطاع ان يعرّف موضوع التاريخ

(١) كوندسيدران اشتراكي فرنسي له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادي واشتراكي ألماني كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ومؤلف اعظم كتاب في الاشتراكية (رأس المال) (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعي واقتصادي روسي ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦)

بهذه الصورة ، وان ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . بل لم يقل احد غير ابن خلدون ان التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية في حياة الانسان . فاذا كان يجدر بنا ان نتوسع في فهم التاريخ الى هذا الحد ، واذا كان التاريخ علماً ، فان التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنهُ ليس له سلف فيما يظهر . ومن حقه ان يعتبر انهُ المكتشف . وهنا بلا ريب اروع ابتكاراته واكثرها طرافة ، وان كان ذهنه الناقد قد شقَّ طرقاً جديدة في نواحٍ كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والاطماع ، والى الاغراض والغايات ، والى قوة الارادة ، وقوة الذهن لدى الافراد ، ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ، ولكنها تخضع ايضاً للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على ان يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى انها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ ايضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . واذاً فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي ، ان ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولكي نفهم هذه يجب ان نحسب حساباً للعوامل الطبيعية . ومن ثمَّ كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الانساني : واذاً فهو علم الاجتماع . ثم يقول الاستاذ شميت ان ابن خلدون رغم طابعه الاسلامي انما هو فيلسوف مثل اوجست كونت ، وتوماس بكل ، وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هجل [1] تحليلاً للقضاء والقدر . واذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فان الاستاذ شميت يرى مع معظم النقدة ان ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالاخص مع جمبلوفتش ان الاجتماع وجد قبل اوجست كونت بعصور طويلة ، وان ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وانه فيما عالج من خواص العادة والاقليم ، والارض ، والغذاء ، قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم

وينقل الاستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الاسباني التاميرا : « كفى انهُ في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الاوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كتب كتاب كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التي غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين »

---

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعي انكليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهجل فيلسوف المانى كبير . درس فلسفة الدين والروحيات والالهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١) —